كلمة ختام العدد
دفاعاً عن الكتابة في العلوم الاجتماعيّة[1]

الطاهر لبيب[1]

قـد تكون في شـهادتي مجازفةُ التركيز على ما يبـدو بعيداً عمّا يُنتظر من «شهادة باحثٍ». ومهما كان الأمر فلا أقربَ إليَّ ولا أَوْلى بالذّكر من تلقائية الميل، عندي، إلى الحميميّ في العلاقة بالمعرفة. في حدود هذا الميل، لا أبعَدَ، أكتفي بلمسـات رسم تقريبي لِمَلمحيْن متلازمين جرت العادةُ بإبعادهما عن مَتْنِ المعرفة العلَميّة: المتعةُ والكتابة.

وتجنّبـاً للـردود «المَحصّنـة» للبحث، أشـير، بدءاً، إلـى أن تجربتي تدريسـيّةٌ، أساسيّاً. لا أدري إن كنتُ باحثاً، يوماً ما، في موضوع ما. وإذا صـادف أن كُنتُه ففي حدود المتعة. ولمّا كانـت المتعة من جهة الكتابة، أولاً، فهـي في «لـذّةِ النصّ»، أولاً. ليس للواجـب، ومنه واجب المهنة، دخلٌ في هذه المتعة، إذ هي أقرب إلى الخروج منه، إن لم تكن خروجاً عليـه، غالبَ الأحيـان. كلُّنا مع الواجب، قيمةً نمدحُهـا وأداءً نفتخِر به. شـخصياً، لا أتحمّلـه، في المعرفة، مـن دون متعتِـه. وإذا كان التدريس منحنـي الإحسـاسَ بالجمـع المُريح بيـن الواجب والمتعـة فالبحث لم يمنحنـي ذلك إلاّ اسـتثناءً، في مـا نَدَر من محطّاته. هذا الشـحُّ، لا ضيق الوقت أو الوسـيلة، هو مـا جعلني مُقِلاًّ في البحـث، ومُمتعضاً ممّا كان منـه تحت الطلب. طبعاً، كانت لي، كما كانت لغيري، لحظاتُ الواجبِ المؤدلَج، وهذه لحظات لا يُعتذَر عنها، كما لا يُعتذَر على وعي سـابق. ما يهمُّ منها، في السياق، أنّ أقرب ما بقي إليَّ منها صياغتُها: صيغةٌ آنسُ بما فيها من حميميّةِ الحنين إلى حبٍّ أوّل: الأدب.

هكـذا، إذا صـادف أن كنـتُ باحثاً، يومـاً ما، في موضـوعٍ ما، فليـس لأنّي بحثـتُ وإنما لأنني ظننتُ أنّـي كتبـتُ. نـزوةُ الكتابة هذه يُضاف إليها انعدامُ قناعتي بأنّي من المتخصصين فـي فرعٍ أو غرضٍ من فروع علم الاجتماع وأغراضه. لقد شاءَ تقاطعُ الصّدفة والرغبة أن يتسلّل تكويني إلى مناطق مـن التداخل لا أرتاح إلاّ فيهـا. كيف أُصنَّف، والحـال هـذه؟ لا أدري، ولا حـرص عنـدي، علـى التصنيـف. ولـو كان لـي طموحٌ فـي هذا لـكانَ أنْ لا أُصنَّف، جرياً مع المزاج الذي هو شرطُ المتعة.

كانت لي، كما كانت لغيري، لحظاتُ الواجبِ المؤدلَج، وهذه لحظات لا يُعتذَر عنها، كما لا يُعتذَر على وعيٍ سابق

مهنيّـاً، وإذاً إجرائيّـاً، أنتسِـب إلى علـم الاجتماع ولكنّي لستُ واثقاً من امتثالي لما ساد من شروط هذا الانتسـاب وطقوسـه. وليـس هذا من جهة ما نشـترك فـي معرفته وتعليمه من نظرياتٍ ومقاربات ونصوص ومراجـع، وإنّمـا هو من جهـة ما يُسـمّى عَرْضاً، على وجـه الإجمـال، وكتابـةً، علـى وجـه التخصيص. ما أسـمّيه عدمَ امتثال للشـروط والطقوس هو، تحديداً، هذا الإصـرارُ على إخضـاعِ مواضيع صمّـاء لصياغةٍ تلبّي الرغبةَ في الكتابة.

لـكلٍّ منّا مسـارهُ، وله منه شـهادتُه. وما يسـتوقِفنا ليـس، بالضـرورة، مـا تتقاطع فيـه مسـاربُنا، فهذا من عموم التجارب. من منّا لم يُعطِّل أو يَبتُر طموحَ جهدِه ومردودَ طاقته غيابُ الحريات وحتى إقامة الحدّ على عِلمـه، في السياسـة أو الدّيـن؟ من منّا لم يشـتكِ من غيـاب السياسـات ومـن تدنّـي المسـتويات فـي البحـث والتعليـم؟ مـن منّـا لم يُشـكّك فـي مدنيّة معرفـةٍ ينسـجها التمويـل في المجتمع المدني العربي؟ من منّا لم يشـعر باليُتم، فـي غياب مجموعـة علميّة ذات سـلطة معرفيّة؟ هذه أسـئلة، ومثلها كثير، تتقاطع فيها خيباتُنا وأسـئلتُنا وما توفّر مـن أجوبتنا. وراء هذا التقاطـع يبقى الحميميُّ، ولـكلٍّ منّا نصيبُـه منه، فـي علاقته بمعرفتِـه. نصيبي، كمـا أراه، هو رغبةٌ، مكبوتةٌ إجمالاً، في متعةٍ تأتي من الكتابة. تدقيقاً: تأتي من كتابة رغبةٍ في الكتابة.

الحميمـيُّ، فـي هـذا المعنـى، هـو خـارج ثنائيّـةِ الموضوعـي والذاتـي المسـطَّحة والمكـرورةِ فـي خطابنا: ثنائيّةٌ غالباً ما يتطاولُ فيها موضوعيٌّ شـكليّ ودعـيٌّ علـى زَخـمِ الذاتـي وتلويناتـه، بما فـي ذلك الحـسُّ والحـدس والـذكاء والخيال والمجـاز. هذا الموضوعـيّ المكمَّـمُ بالكمـيّ، المسـكونُ بالهوس التقني والمنحسـرُ فيه جهد البناءِ النظـريّ أنتجَ أطناناً عربيّةً من البحوث، أغلبها ميدانيّ، لم يَعد لها ذكرٌ. قد يكـون هـذا لظرفيّتها أو لرداءتها أو لبداهة أو سـذاجة فرضياتهـا ونتائجها، ولكن قد يكون أيضـاً لقِصَرٍ في صياغتها. وهي، عندئذ، تُطالَعُ، إن كانت حاجةٌ إليها، ولكنّها لا تُقرأ، أي لا تُمتعُ.

مـن الواضـح أنـي لا أضـع المشـكل ولا مصدر الكبـت السوسـيولوجي فـي العجز عن إنجـاز بحثٍ

من منّا لم يُعطّل أو يَبتُر طموحَ جهدِه ومردودَ طاقته غيابُ الحريات وحتى إقامة الحدّ على عِلمه، في السياسة أو الدّين؟

وإنما في العجز عن كتابته. لهذا الكبتِ وسائل تخفيفٍ، منها التصعيدُ الشَفوي، كما هو الحال في التدريس، ومنها الهروب إلى مجالات ومواضيع مُطيعةٍ، إذ المجالات والمواضيع تختلف قابليّتها للكتابة، وبعضُها من قبيل الخامات والأشكال غير القابلة للكتابة أصلاً: إذا كان الكثير من البحوث فيها كلُّ شيءٍ ما عدا الكتابة أو ليس فيها إلاّ المنهجُ، على حدّ تعبير رولان بارت، فإنه كلّما كان الانتقالُ من المادّة الخام إلى التأويل، فإلى الخطاب على الخطاب، اتَّسع المجالُ للمجاز، فاتّسعت العبارةُ للكتابة.

أعرفُ أن المسافة بين البحث والكتابة لا تشغل بال الكثيرين من أهل العلوم الاجتماعيّة، وأكثر من ذلك أنهم قد يرون فيها مسافةَ هروبٍ أو تسيّب. وهم، في ذلك، يستندون إلى ما تميّع وسادَ من خطاباتٍ لا تقوم على معرفةٍ أو هي لا تحتاج إليها. وليست الكتابة من هذا في شيء، إذ هي، اختصاراً، دقةُ المعرفة حين تصاغ جماليّاً.

إنّ القصد من هذه الإشارة تذكيرٌ بأن العلوم الاجتماعية العربيّة تحاشت طرحَ مسألةِ العلاقة بين البحث والكتابة. وهي لو طرحتها لعرَّت ما وراءها من أوضاع وأحكام: أعمُّ الأوضاع وأصعبُها بؤس اللغة، وهي هنا العربيّة، في ما آلت إليه من حال. أما الأحكام فمنها المعهودُ من اعتبار الصياغة من شكليات البحث لا من صُلبه أو نسيجه، ومنها المعهودُ أيضاً من اعتبار اللغة مجرّد حاملٍ للمضمون أو مجرّد وسيلة للتعبير عنه. في الحالتينِ، يُنسى أثرُ الصياغةِ على المضمون، كما يُنسى أن الصياغات الشهيرة، كصياغات نيتشه مثلاً، لم تكن بحثاً عن البلاغة، لذاتها، وإنما كانت سَنداً للتجاوز في المعرفة الفلسفيّة وتثويراً لها.

الدعوة إلى جمالية العلوم الاجتماعيّة، ولنقلْ إلى تجميلها، ليستْ جديدة، خارج الفضاء العربي. في السوسيولوجيا، مثلاً، نقاشٌ لم ينقطع، منذ بداية القرن العشرين، منذ جورج زِمّلْ على الأقل، حول علاقة المضمون بالشكل، لا في مدلوله الشكلي (Formel) وإنما في معنى الشّكل المشكِّل (Forme Formante)، وهو نقاش لو استعملنا القياس في سحبه إلى سياقنا لظهر فيه هاجسُ التعبير، بما هو عاملُ تشكيلٍ للواقع، كما يُبنى في النصّ. وإذا عُرِّب هذا الهاجسُ أصبح مرعباً لأن فحوى القول متباعدٌ عن شكل القول.

كلّما كان الانتقالُ من المادّة الخام إلى التأويل، فإلى الخطاب على الخطاب، اتَّسع المجالُ للمجاز، فاتّسعت العبارةُ للكتابة

الدعوة إلى جمالية العلوم الاجتماعيّة، ولنقلْ إلى تجميلها، ليستْ جديدة، خارج الفضاء العربي

أقول هذا من دون أن تغيب عن ذهني نصوصٌ مؤسّسة في العلوم الاجتماعية العربية، منها ما جمع بين صرامة التحليل ورقة الصياغة. هذا مشرقاً ومغرباً، وإنْ تميّزت في هذا، بين الحالات المعاصرة، حالة المغرب الأقصى حيث هذا الجمعُ أوسعُ ما يكون، عربيّاً: من كبار الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع من صاغ معرفته بدقةٍ وجمال وأبدع في الأدب، بدءاً بالرواية.

هل تحتاج الدعوة إلى جمالية العلوم الاجتماعية العربية إلى المزيد من التبرير؟ إن كان ذلك، والمبررات كثيرة، أكتفي بمشهدين وتمنٍّ واحد:

المشهد الأول مشهد علم اجتماع عربي قاتم، ثقيل الظلّ، إذا قُرئ ظُنّ أن مجتمعاتنا ليست إلاّ نسيجَ مِحنٍ وشقاء، لا وجود فيها لناس يبدعون ويحبّون ويفرحون ويأملون أو يرفّ لهم وجدان لجمال الكون. لكأنَّ علم الاجتماع العربي كآبةٌ أو لا يكون. الأمثلة؟ صورة امرأة لا تكون، في بحوثنا، إلاّ مضطهدة، معنَّفة، محرومة، مطلقة، معطّلة ... وصورةُ شباب مائع، ينهش «قيمنا الخالدة» ولا يُتوقّع من «رهطه» أن يشحن، يوماً، ثورةً. من أسباب هذا ما له أصلٌ في نشأة علم الاجتماع العربي نفسها، إذ في الأصل ربطٌ مؤسسيّ بين المعرفة السوسيولوجية وحلِّ المشاكل التي طرحها بناء الدولةِ الوطنيةِ. عالم الاجتماع نشأ «حلاّل مشاكل» ولا يزال يُنظر إليه على هذا الأساس ويُطلب منه الافتاءُ في كلّ شيء.

المشهد الثاني، مرتبطاً بالأول، هو فقدان التهوئة المعرفية والجمالية. مقاومةُ ما يُعتبر، على وجه التّمدرس، خارجاً عن الاختصاص، حال دون الانفتاح على مواضيع ومقاربات ثريةٍ وذكية. قد يكون في الأصل غيابُ حبيّن: الأدب والفلسفة (غيابٌ ملأه تسولُج الأدب والفلسفة أكثر مما ملأه «تأدّب» السوسيولوجيا وتفلسفها) وهو،اليومَ، غياب مرجعياتٍ، من نوع زمّلْ وبارت وحتى غيرتس، إلى حدٍّ ما، لا يكاد يذكرها إلا المارقون أو ذوو النزوات من السوسيولوجيين العرب.

أما التمنّي فأن يرسم الجمال، في المعرفة، للمعرفة، «معرفةً مرحة» بين سابع السماوات وتضاريس الأرض. وإذا تطلّب هذا مروقاً أو نزوةً فليتزايد، بين العرب، عدد المارقين وذوي النزوات في العلوم الاجتماعية، وليكن شعارهم إنقاذ ما أمكن منها بالجمالية، موضوعاً وتعبيراً.

الهوامش

١ نصّ «الشهادة» المقدمة لندوة «مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» المنعقدة في وهران بالجزائر من ١٠-١٢/٣/٢٠١٢.

٢ أستاذ علم الاجتماع، تونس- بيروت، ومؤسس الجمعية العربية لعلم الاجتماع ورئيسها الشرفي. من مؤلفاته: سوسيولوجيا الغزل العربي، (بالفرنسية ١٩٧٤، آخر ترجمة عربية قام بها المؤلف ٢٠٠٩)، وسوسيولوجيا الثقافة (١٩٧٨).